دمشق أُمُّ الشام الإداريّة والسياسية، والقدس أُم الشام الروحية

ألّف ابن عساكر المتوفى سنة 571هـ كتاباً سماه «تاريخ مدينة دمشق»، ووصفها بأنها «أُم الشام»، قال: «فإني كنت قد بدأت قديماً لسؤال مَنْ قابلت سؤاله بالامتثال والالتزام، على جمْع تاريخ لمدينة دمشق أُم الشام».

ولكن ترجم في هذا الكتاب لأكثر الرجال الذين حلوا في بلاد الشام كلها، وذلك لأنه عدَّ دمشق عاصمة بلاد الشام، وعدّ قرى ومدن بلاد الشام تابعة لها، فقال: «وهو كتاب مشتمل على ذكر من حلّها من أماثل البرية، أو اجتاز بها، أو بأعمالها»، ويقصد بكلمة «أعمالها»: القرى والمدن التابعة لها إدارياً أو سياسياً.

وكانت «أعمال» دمشق تتسع حيناً، وتضيق حيناً، ومع ذلك تبقى أكبر مدينة في بلاد الشام، وقد كانت عاصمة قبل الإسلام، ثم صارت عاصمة العالم الإسلامي في العصر الأموي حتى سنة 132هـ، وعندما انتقلت عاصمة الخلافة إلى بغداد، بقيت دمشق عاصمة الشام، واتخذها صلاح الدين عاصمة، فتمرّض فيها، ودُفن فيها أيضاً. وعندما صار الملك في مصر (عصر المماليك) بقيت دمشق عاصمة للشام. . فلا غرابة أن يعدّها ابن عساكر «أم الشام»، ويعدَّ بقية بلاد الشام من أعمالها. . وبهذا يكون قد أطلق الجزء وهو «دمشق» على «الكلِّ» وهو «الشام».

وفي العصر الحديث أطلق الناس الكلَّ على الجزء صراحة، فسموا دمشق «الشام»، فإذا قيل في سورية ولبنان وفلسطين والأردن: فلان من «الشام»، يعني: أنه من دمشق. وقيل في السعودية: «الرياض» العاصمة السياسية، و«مكة» العاصمة الدينيّة. فكذلك الأمر في بلاد الشام، فإن «القدس» هي العاصمة الدينيّة أو الروحية؛ لأن مناقب بلاد الشام، وبركتها وقداستها في أعين المسلمين والنصارى، إنما جاءَت

من قداسة القدس. ويكفي القدس مكانة وقدراً: أن الله جعلها مركز البركة، ثم توزعت البركة حول المسجد الأقصى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، وإذا بارك الله حول المسجد الأقصى، فإن البركة تكون في القدس أكثر وأعمق؛ بدليل مضاعفة ثواب الأعمال فيها.